منهج الشيخ السعدي في الرد على الشبهات

د. محمد بن فهد الحربي

أستاذ الدعوة المساعد - كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى

مكة المكرمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

فإن أعداء الإسلام وأهل الأهواء يكيدون كيداً للدين والقرآن والنبي ﷺ منذ فجر الدعوة وفي كل عصر، والمتأمل في آي الذكر الحكيم يجد آيات كثيرة تحدثت عن طرفٍ من ذلك الكيد الظاهر والخفي.

ولقد تصدى علماء الإسلام وفحوله – على مر التاريخ – للرد على تلك الشبهات وبينوا مقتضاها، وتهافتها وفسادها، بالأدلة النقلية والعقلية، وألفوا مؤلفات جليلة في التحذير من أهل البدع والأهواء، وما يتعلقون به من شبه لا تسمن، ولا تغني من جوع، بل تدل أكبر دلالة على فرط جهلهم، وضحالة تفكيرهم، وسوء طوياتهم، وتنوع مشاربهم وأغراضهم.

ومن جملة أولئك العلماء الأعلام الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي – رحمه الله – فله جهود مشكورة فيما ألفه من مؤلفات حافلة في إبراز محاسن الإسلام، والدفاع عنه، وقد أحببت في هذا البحث المتواضع أن أبين منهجه في الرد على الشبهات، مبيناً أنواعها، وطرفاً من الحديث عن أهلها، وقد جعلته تحت عنوان: **(منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي في الرد على الشبهات)**، سائلا من الله تعالى التوفيق والعون والسداد.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. بيان أهمية الرد على الشبهات
2. توضيح أنواع الشبهات التي تناولها الشيخ عبد الرحمن السعدي

3. بيان معالم منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي في الرد على الشبهات مع النماذج.
4. استعراض نماذج من ردود الشيخ عبد الرحمن السعدي على الشبهات.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في إبراز المنهج الدعوي الذي سلكه الشيخ عبدالرحمن السعدي في الرد على الشبهات وأهل الأهواء ، وبيان شبههم ، وطريقة إبطالها ودحضها.

منهج البحث:

سوف يتناول الباحث قضايا هذا البحث من منظور المنهج الاستقرائي التحليلي، بتتبع مؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي ــ قدر الاستطاعة ــ للخروج برؤية واضحة تحدد معالم منهجه في الرد على الشبهات، وطريقته في ذلك.

الدراسات السابقة:

كثيرة هي الدراسات التي تناولت شخصية الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ومؤلفاته، ومنهجه في التفسير والدعوة، ولكن دراسة منهجه في الرد على الشبهات لم تدرس بعد حسب علم الباحث المتواضع، ومن هنا يأتي هذا البحث لسد ثغرة في جوانب الدراسة الدعوية والثقافية من شخصية الشيخ السعدي.

خطة البحث:

يستوي البحث على مقدمة، وتمهيد ومبحثين، وخاتمة، كالآتي:

المقدمة وفيها: أهداف البحث، ومشكلته، ومنهجه، والدراسات السابقة، وخطة البحث

التمهيد: وفيه التعريف بالشيخ السعدي، والتعريف بالشبهات

المبحث الأول: جهود الشيخ السعدي في الرد على الشبهات، وفيه مطلبان:

المطلب الاول: أهمية الرد على الشبهات

المطلب الثاني: أنواع الشبهات التي تناولها الشيخ السعدي

المبحث الثاني: منهج الشيخ السعدي في الرد على الشبهات، وفيه مطلبان:

المطلب الأول معالم منهج الشيخ السعدي في الرد على الشبهات.

المطلب الثاني: نماذج من ردود الشيخ السعدي على الشبهات.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد

التعريف بالشيخ السعدي والتعريف بالشبهات

أولاً: التعريف بالشيخ السعدي:

هو العلَّامة المفسِّر الفقيه الأصولي المُربِّي أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي الحنبلي[1].وُلد – رحمه الله – في عُنَيزة بالقصيم، في الثاني عشر من شهر الله المحرَّم، سنة سبع وثلاثمئة وألف[2].

ونشأ الشيخ – رحمه الله – نشأةً صالحة، فقد كان والده – رحمه الله – من طلبة العلم، وقد تُوُفِّيَ والشيخُ صغيرٌ، ابن سبع سنين، فقام على رعايته وتعليمه أخوه الأكبر (حَمَد)، فبدأ بحفظ القرآن، وأقبل على العلم وحفظ المتون، وقرأ على الشيوخ، وحصَّل في وقت قصير ما يُحصِّله غيرُه في أزمان طويلة، حتى صار فقيهًا كبيراً، وعالماً مُتبحِّراً يُشار إليه بالبنان[3].

(1) مصادر ترجمته: الأعلام، للزركلي، (340/3)، علماء نجد خلال ستَّة قرون للبسَّام، (219/3)، روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، لمحمد بن عثمان القاضي (220/1).

(2) علماء نجد، (219/3)، حياة عبد الرحمن السعدي في سطور، جمع وإعداد أحمد عبد الله القرعاوي، (ص12)، مواقف اجتماعية من حياة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، لمحمد بن عبد الرحمن السعدي، (ص19).

(3) علماء نجد، (219/3).

ومن صفاته الخَلْقية كان – رحمه الله – مُتوسِّطَ القامة، كثيف الشعر، كثَّ اللحية، أبيضَ مُشرَباً بحمرة، وكان على وجهه حُسْنٌ وصفاء.

ومن صفاته الخُلُقية: أنه – رحمه الله –كان طَلْقَ المُحيَّا، حسنَ الأخلاق، ذا مرح ودعابة، وكان رحيماً بالناس، مُحِبّاً لنفعهم، يُنزِلهم منازلهم، ويحرص على القرب منهم، وإجابة دعوتهم، وتفقُّد أحوالهم؛ كما كان حريصاً على إصلاح ذاتِ البين، فما من مشكلة تُعرَض عليه إلَّا ويسعى في حلِّها؛ وذلك لما كتبه الله له من محبة الناس، وانقيادهم لمشورته[1].

وحُبِّب إلى الشيخ العلمُ منذ الصغر، فحفظ القرآن في نحو الحادية عشرة من عمره، وأكبَّ على طلب العلم والاغتراف من بحره، وعكف على تراث شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه ابن القيِّم، ونهل من علمهما ما شاء الله له أن ينهل، كما أخذ عن عدد من المشايخ والعلماء واستفاد منهم وانتفع بهم، وسأذكر أسماءهم مُرتَّبَة حسَب وَفَياتهم[2]:

1- إبراهيم بن حمد بن جاسر (ت1338هـ).
2- علي بن مُحَمَّد السناني (ت1339هـ).
3- إبراهيم بن صالح بن عيسى (ت1343هـ).
4- مُحَمَّد بن عبد الكريم الشبل (ت1343هـ).
5- صالح بن عثمان القاضي (ت1351هـ).
6- علي بن ناصر بن وادي (ت1361هـ).
7- مُحَمَّد بن عبد العزيز بن مانع (ت1385هـ).
8- مُحَمَّد الأمين الشنقيطي (ت1393هـ).

(1) تراجم لتسعة من العلماء، مُحَمَّد الحمد، (ص: 228).
(2) علماء نجد، (222/3)، حياة الشيخ السعدي، للقرعاوي، (ص35)، مواقف اجتماعية (164).

أخذ عن الشيخ عبد الرحمن السعدي تلاميذ كُثُر من أنحاء شتَّى، ومنهم[1]:

1- صالح بن عبد الله الزغيبي (ت1372هـ).

2- مُحَمَّد بن صالح العثيمين (ت1421هـ).

3- عبد العزيز بن مُحَمَّد السلمان (ت1422هـ).

4- عبد الله بن عبد الرحمن البسَّام (ت1423هـ).

5- مُحَمَّد بن سليمان البسَّام (ت1431هـ).

6- عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل (ت1432هـ).

وكان الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ سلفيَّ العقيدة، صافيَ المشرب، أثريَّ الطريقة، بعيداً عن الخوض في الكلام المذموم، والنِّحَل الفاسدة. كما كان رحمه الله كثيرَ الاطِّلاع على كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وتلميذه ابن القيِّم، والإمام المجدِّد مُحَمَّد بن عبد الوهَّاب رحمهم الله تعالى جميعاً.

وللشيخ مصنفات كثيرة، فقد كان الشيخ رحمه الله بارعاً في كثير من العلوم؛ لذا كثُرتْ مُصنَّفاتُه، وتعدَّدت جوانبها؛ فقد صنَّف في الفقه، والأصول، والعقيدة، والتفسير، وعلوم القرآن، والأخلاق، والآداب، وغيرها. وسأذكر ما تيسَّر من أسماء مُؤلَّفاته مُرتَّبًا حسَبَ العلوم قدرَ الاستطاعة[2]:

أ- القرآن وعلومه:

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان.
- القواعد الحسان لتفسير القرآن.

(1) علماء نجد، (219/3)، حياة الشيخ عبد الرحمن السعدي، للقرعاوي، (ص: 39)، مواقف اجتماعية من حياة الشيخ عبد الرحمن السعدي، (ص: 170).

(2) طُبعت جميعُ مصنفات الشيخ رحمه الله في دار الميمان بالسعودية في 26 مجلدًا. ينظر: مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (177/1).

– تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن.

– الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلةٌ في الدين الإسلامي.

– فوائد مُستنبَطة من قصة يوسف عليه السلام.

– المواهب الرَّبَّانيَّة من الآيات القرآنية.

– طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول.

– فتح الرحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبَطة من القرآن.

ب– التوحيد والعقائد:

– الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية.

– الدُّرَّة البهية شرح القصيدة التائية في حَلِّ المشكلة القدرية.

– الدُّرَّة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي.

– الرياض الناضرة والحدائق النَّيِّرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوِّعة الفاخرة.

– الدين الصحيح يَحُلُّ جميعَ المشاكل.

– الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين.

– البراهين العقلية على وحدانية الرَّبِّ ووجوه كماله.

– أصول عظيمة من قواعد الإسلام.

– الرَّدُّ على الزنادقة والقائلين بوحدة الوجود.

– انتصار الحق.

– توضيح الكافية الشافية.

– التوضيح والبيان لشجرة الإيمان.

– التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المُنِيفة.

– القول السديد في مقاصد التوحيد.

- تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله.

ج- الفقه وأصوله وقواعده:

- منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين.
- حاشية على الإقناع وشرحه.
- التعليقات على عمدة الأحكام.
- الجمع بين الإنصاف ونظم ابن عبد القوي.
- الفتاوى السعدية.
- حكم شرب الدخان.
- سؤال وجواب في أهمِّ المهمات.
- الجهاد في سبيل الله.
- المختارات الجلية من المسائل الفقهية.
- رسالة مختصرة في مناسك الحج والعمرة.
- منظومة في أحكام الفقه.
- صفوة أصول الفقه المنتخبة من مختصر التحرير.
- المناظرات الفقهية.
- منظومة القواعد الفقهية وشرحها.
- إجزاء سُبُع البدنة.
- تحفة أهل الطلب في تجريد قواعد ابن رجب.
- رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة.
- القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة.
- مجموع الفوائد واقتناص الأوابد.
- الإرشاد إلى معرفة الأحكام.
- الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة.

- الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية.
- الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية.

د- الخطب والمواعظ والآداب:

- الفواكه الشهية في الخطب المنبرية.
- الخطب المنبرية على المناسبات.
- بهجة قلوب الأبرار وقُرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار.
- منظومة في السير إلى الله والدار الآخرة.
- الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.

وللشيخ مكانة عالية بين أهل العلم، فقد كان رحمه الله عالماً كبيراً، بارعاً في التفسير والفقه والأصول وعلم الاعتقاد وغير ذلك، وكان مُتمذهِباً بمذهب الحنابلة أولاً، ثم بعد أن تضلَّع من العلم سلك مسلكَ الاجتهاد، وترجيح ما يراه مُوافِقاً للدليل؛ وكان محلَّ تقدير واحترام من الجميع، وأثنى عليه علماء عصره وغيرهم، ومن ذلك[1]:

- قال عنه الشيخ مُحَمَّد حامد الفقي: "لقد عرفتُ الشيخَ عبد الرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنةً، فعرفتُ فيه العالمَ السلفي المدقِّق المحقِّق، الذي يبحث عن الدليل الصادق، ويُنقِّب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوي على شيء".

- وقال عنه الشيخ عبد الرزاق عفيفي: (مَن قرأ مُصنَّفاته، وتتبَّع مُؤلَّفاته، وخالطه وسبَرَ حاله أيام حياته؛ عرف منه الدأبَ في خدمة العلم اطلاعًا وتعليمًا، ووقف منه على حُسْنِ السيرة، وسماحة الخلق، واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه

(1) تراجم لتسعة من العلماء، مُحَمَّد الحمد، (ص: 229، 230).

وطُلَّابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يَجُرُّ إلى شرٍّ، أو يُفضِي إلى نزاع أو شقاق؛ فرحمه الله رحمة واسعة".

– وقال عنه الشيخ ابن باز: "كان رحمه الله كثيرَ الفقه، والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيم العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه العلَّامة ابن القيِّم، وكان يُرجِّح ما قام عليه الدليلُ، وكان قليلَ الكلام إلَّا فيما ترتَّب عليه فائدةٌ، جالستُه غيرَ مرَّة في مكة والرياض، وكان كلامه قليلاً إلَّا في مسائل العلم، وكان متواضعاً، حسنَ الخُلُق، ومَن قرأ كتبه؛ عرف فضله وعلمه وعنايته بالدليل؛ فرحمه الله رحمة واسعة".

– وقال الشيخ الألباني عن تفسير الشيخ السعدي: "هو تفسير جيِّد، وله أقوال جيِّدة، مع أن مراجعتي له قليلةٌ، لكن ـ في حدود اطلاعي عليه ـ تبيَّن لي أنه مُتحرِّر الرأي والنظر بضوابط الشرع، وليس عنده جمود أو تعصُّب. وقد التقيتُه في دمشق قبل أكثر من أربعين سنةً، وآنستُ منه علماً جمًّا، ورأيتُ فيه تواضعَ العلماء، وهو في هذا كسائر علماء نجد، يُذكِّروننا بأخلاق العلماء المتقدِّمين وتواضعهم، وليس كغيرهم ممن جعلهم علمُهم مغرورين مُتكبِّرين".

– وقال عنه الشيخ ابن عثيمين: (إن الرجل قلَّ أن يوجد مِثلُه في عصره؛ في عبادته وعلمه وأخلاقه، حيث كان يعامل كُلًّا من الصغير والكبير بحسَب ما يليق بحاله، ويتفقَّد الفقراءَ، فيُوصِل إليهم ما يَسُدُّ حاجتَهم بنفسه، وكان صبوراً على ما يُلِمُّ به من أذى الناس، وكان يحب العذرَ ممن حصلت له هفوةٌ، حيث يُوجِّهها توجيهاً يحصل به عذر مَن هفا".

وفاته: أُصِيبَ الشيخُ رحمه الله عام 1371هـ بمرض ضغط الدم وتصلُّب الشرايين، فكان يعتريه مرَّةً بعد أخرى، إلى أن توفَّاه الله قبل طلوع فجر يوم الخميس الثالث

والعشرين من جُمادَى الآخِرة سنة ستٍّ وسبعين وثلاثمئة وألف، عن تسع وستّين سنة؛ فرحمه الله رحمةً واسعةً، وأسكنه فسيحَ جنَّاته[1].

ثانياً: تعريف الشبهات في اللغة والاصطلاح:

الشبهة في اللغة:

من الشبه وهو الالتباس، واشتبها: أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا. وأمور مشتبهة أي مشكلة، وشُبِّه عليه الأمر تشبيها: لبِّس عليه، والمشبهات من الأمور: المشكلات، واشتبه الأمران، إذا أشكلا[2].

الشبهات في الاصطلاح:

معنى الشبهة يختلف بحسب الفن الذي يتناوله:

في اصطلاح الفقهاء: "ما لم يتيقن كونه حراماً أو حلالاً أو ما جهل تحليله على الحقيقة وتحريمه على الحقيقة"[3].

في اصطلاح المتخصصين في العقيدة: "والشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة فان تداركها والا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكا مرتاباً ... وسُميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها فانها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل "[4].

(1) تراجم لتسعة من العلماء، مُحَمَّد الحمد، (ص: 231).

(2) ينظر: القاموس المحيط،الفيروز آبادي، (ص: 1247)، مقاييس اللغة، ابن فارس.

(3) معجم مصطلحات العلوم الشرعية، (ص: 949).

(4) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (140/1).

والتعريف المراد به في البحث:"كل زعم أو ادعاء أو افتراء يتضمن طعناً أو تشكيكاً في كل ما يوصف ــ عن حق ــ بأنه إسلامي، من حقائق ومبادئ وثوابت وأصول"[1].

المبحث الأول

جهود الشيخ السعدي في الرد على الشبهات

المطلب الأول: أهمية الرد على الشبهات

الإسلام دين هداية ووقاية، يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، صراط من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وبعداً عن صراط المغضوب عليهم من اليهود والنصارى الضالين.

وفي الزمن الحاضر أصبحت وسائل نشر المعلومات النافعة والضارة من أيسر ما يكون، فقد توافرت الوسائل والامكانيات، بإيصال ما يريده الشخص من معلومات بأيسر طريقة وأسهل أسلوب.

وهي فرصة لأهل الباطل أن يروجوا باطلهم، ويزخرفونه بصورة الحق والنفع؛ ليتمكنوا نشره وقبوله بين الناس، قال الشيخ السعدي رحمه الله:"ومتى تأملت أحوال البشر، وكيف سرى الباطل فيهم بصورة هائلة، وزخرفت له الأقوال، وروج بأساليب متنوعة، ونصر بالقوى المادية، وجرف بتياره وفتنته الخلق الكثير، ولم يسلم من فتنته إلا اليسير ممن عصمهم، وحفظهم بالبصيرة النافذة والبعد عن هذه الفتنة"[2].

ويبين الشيخ السعدي – رحمه الله – أن معرفة سبل وشبهات أهل الباطل، ومخالفتهم للحق من الفقه في الدين، يقول بعد ذكره لحديث النبي ﷺ: (من يرد الله به

(1) موسوعة بيان الإسلام في الرد على الافتراءات والشبهات، (28/1).

(2) فتنة الدجال، (ص: 259)، بتصرف يسير.

خيرا يفقه في الدين)[1]، قال:"هذا الحديث من أعظم فضائل العلم، وفيه: أن العلم النافع علامة على سعادة العبد، وأن الله أراد به خيرا، والفقه في الدين يشمل الفقه في أصول الإيمان، وشرائع الإسلام والأحكام، وحقائق الإحسان. فإن الدين يشمل الثلاثة كلها، كما في حديث جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وأجابه ﷺ بحدودها. ففسر الإيمان بأصوله الستة، وفسر الإسلام بقواعده الخمس، وفسر الإحسان بـ(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[2]، فيدخل في ذلك التفقه في العقائد، ومعرفة مذهب السلف فيها، والتحقق به ظاهرا وباطنا، ومعرفة مذاهب المخالفين، وبيان مخالفتها للكتاب والسنة"[3].

فمن عرف فساد شبهاتهم وضلالها، كان للحق أعرف، فليس الغاية من عرض شبهاتهم التلبيس على القارئ، بل الغاية بيان عوار شبههم وضحالتها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"ونحن نبين فساد طريق هؤلاء بالطرق الإيمانية والقرآنية تارة، وبالأدلة التي يمكن أن يعقلها من لا يستدل بالقرآن والإيمان، وذلك لأنا في مقام الخاطبة لمن يقر بأن ما أخبر به الرسول حق....،فإن فساد المعارض مما يؤيد معرفة الحق ويقويه، وكل من كان أعرف بفساد الباطل كان أعرف بصحة الحق"[4].

وعرض الشبهات ثم الرد عليها هو منهج القرآن والسنة وسلف الأمة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة، فإن الله

(1) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، (24/1)، رقم: (71)، صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، (718/2)، رقم:(1037).

(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺعن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، (19/1)، رقم: (50)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، (39/1، 40)، رقم:(9، 10).

(3) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار، (ص: 23).

(4) درء تعارض العقل والنقل، (258/5).

سبحانه وتعالى ضرب الأمثال في كتابه، وبين بالبراهين العقلية توحيده وصدق رسله وأمر المعاد وغير ذلك من أصول الدين، وأجاب عن معارضة المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان: 33]، وكذلك كان رسول الله ﷺ في مخاطباته"[1].

ويمكن إجمال بيان أهمية الرد على الشبهات في الآتي:

أولاً: إعلاء كلمة الحق:

فالإسلام جاء بإظهار الدين وإعلائه على كل ما سواه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[الصف: ٩]، قال الشيخ السعدي رحمه الله:"ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم"[2].

ثانياً: إزهاق الباطل:

إن علو الحق سبب لدحض الباطل وزواله، فلا يجتمع مع الحق باطل ولا يبقى، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء:

(1) درء تعارض العقل والنقل، (236/1).

(2) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 860).

٨١]، ولا يمكن للباطل أن يعلو ويظهر إلا حال عدم وجود الحق وبيانه ونشره وإظهاره، يقول السعدي رحمه الله:"والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله مُحَمَّد ﷺ ، فأمره الله أن يقول ويعلن، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى.﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك.ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته"[1].

ثالثاً: سلامة للعقيدة:

يبين الشيخ السعدي أن الشبهات تؤثر في القلب شكاً وريباً،وتوقّيها فيه سلامة للإيمان والعقيدة وصحة التدين، قال – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: "﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[العنكبوت: ١ – ٣]، "يخبر تعالى عن تمام حكمته وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال (إنهم مؤمنون) وادعوا لأنفسهم الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فلو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 465).

الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات يتأثر في قلبه بها شكاً وريباً، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها"[1].

رابعاً: صفاء القلب وخلوصه لله بمجاهدة الشبهات:

بين الشيخ عبد الرحمن السعدي أهمية مقاومة الشبهات والشهوات بالحجج والبراهين الصادقة، فهي كالزبد، لا يزال القلب يكرهها، فقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[الرعد: ١٧]، "شبّه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح، بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبّه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد، بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول، فواد كبير يسع ماء كثيراً، كقلب كبير يسع علماً كثيراً، وواد صغير يأخذ ماء قليلاً كقلب صغير، يسع علماً قليلاً وهكذا.

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 626).

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة.

كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وقال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ليتضح الحق من الباطل والهدى والضلال"[1].

خامساً: الشفاء من أمراض القلوب وحصول السعادة:

قال الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٥٧]، "يقول تعالى مرغبًا للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: تعظكم، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها.﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات؛ القادحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة.

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 416).

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين.

وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾فالهدى هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين.وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور"[1].

وإن علامة الضلال الانغماس في الشبهات، قال الشيخ السعدي رحمه الله: "... علامة من يرد الله أن يضله، أن يجعل صدره (ضيقاً حرجاً). أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير؛ كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد إلى السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء، الذي لا حيلة له فيه"[2].

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 366).

(2) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 272).

المطلب الثاني: أنواع الشبهات التي تناولها الشيخ السعدي

قام الشيخ السعدي – رحمه الله – بجهود كبيرة في الرد على أهل الأهواء والزيغ، وكان له جهد عظيم في بيان باطلهم ودحض افتراءاتهم، وقد بين الشيخ رحمه الله أن أمراض القلوب تعود إلى الشبهات والشهوات وبسبب الشبهات ظهرت المنافقون والكفرة وأهل البدع والأهواء والشكوك، فقال: "وقوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقرة: 10]، والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا، ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها، من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[الأحزاب: ٣٢]، وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية"[1].

ويمكن أن نظهر ذلك من خلال بيان الأصناف التي قام الشيخ بالرد عليهم، مع ذكر نموذج على ذلك:

أولاً: شبهات أهل الابتداع:

وهي كثيرة متعددة بتعدد الفرق القائلة بها، ويندرج تحتها:

1. **شبهات الجبرية[2]:**

قام الشيخ السعدي – رحمه الله – بالرد على شبهات هذه الفرقة المنحرفة، فمن ذلك: قيامه بعرض شبهتهم بقوله: "الجبرية القائلين: إن العبد مجبور مقهور على

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 42).

(2) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف. فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً. ينظر: أبو الفتح مُحَمَّد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل: (85/1).

جميع أقواله وأفعاله؛ وإنه لا قدرة له على شيء منها، بل هي عندهم واقعة بغير اختياره"[1].

فبعد عرضه لشبهتهم يبدأ بالرد عليهم ردا مفصلاً فيقول: "وهذا القول باطل بالكتاب والسنة، وباطل بالعقل والحس؛ كما سيأتي بيانه إن شاء الله، وجميع المسلمين من جميع الطوائف أهل السنة وغيرهم ينكرون هذا المذهب ويتبرؤون منه..."[2].

2. شبهات القدرية (نفاة القدر)[3]:

قام الشيخ السعدي – رحمه الله – بالرد على شبهات هذه الفرقة المنحرفة، فمن ذلك: قيامه بعرض شبهتهم بقوله: "وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون: إن أفعال العباد، وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره.

فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات وأوصافها، ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشأها منهم، بل هم الذين أرادوها وشاءوها، وفعلوها استقلالا بدون مشيئة الله.

ويزعمون: أنهم بهذا القول ينزهون الله عن الظلم، لأنه لو قدر المعاصي عليهم، ثم عذبهم عليها، لكان ظالما لهم"[4].

وبعد عرضه لشبهتهم يبدأ بالرد عليهم فيقول:"لكنهم بهذا القول الباطل ردوا نصوصا كثيرة من الكتاب والسنة تثبت وتصرح أن جميع أعمال العباد من خير وشر،

(1) الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، (ص: 9).

(2) المصدر نفسه، (ص: 10).

(3) هم نفاة القدر، وغالب ما يطلق هذا الاسم على المعتزلة.

(4) الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية (ص: 17).

وطاعة ومعصية بقضاء الله وقدره، كما أجمع المسلمون: أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن..."[1].

3. شبهات الجهمية[2]:

قام الشيخ – رحمه الله – بالرد على شبهات هذه الفرقة المنحرفة، وخاصة فيما يتعلق بباب الأسماء والصفات، فقال محذرا في ذلك ومبين ضلالهم:"وكان الجهم بن صفوان معروفاً بين الأمة بهذه البدعة الشنعاء الجامعة لشرور كثيرة أعظمها وأطمها نفي صفات الله التي تواترت في الكتاب والسنة واتفق عليها جميع سلف الأمة"[3].

4. شبهات الخوارج:

لفرقة الخوارج شبهات وفهوم وتأويلات جافت بها أهل السنة والجماعة، ومنها: القول بخلود أهل المعاصي في النار، وقد رد عليهم الشيخ السعدي – رحمه الله – قولهم هذا، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[النساء: ١٤]، "ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب.ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النار

(1) المصدر السابق نفسه، (ص: 18).

(2) هم أتباع جهم بن صفوان، وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به، وزعموا أن الإنسان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه أنه لا يكفر بجحده وأن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا في القلب دون غيره من الجوارح. ينظر: أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، (114/1).

(3) الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، (ص: 105).

وخلد فيها، ومن اجتمعت فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها"[1].

وقال الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة: ٨١]، "وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه"[2].

5. شبهات المشركين:

قال الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى:﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٦،57]، "يقول تعالى لنبيه ﷺ: (قُلْ) لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأوثان، التي لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة، ولا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال، ولهذا قال ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾أي: إن اتبعت

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 170)

(2) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 57).

أهواءكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾بوجه من الوجوه. وأما ما أنا عليه، من توحيد الله وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

وأنا ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾أي: على يقين مبين، بصحته، وبطلان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة، لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود على الإطلاق. فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما مَنَّ الله به عليهم"[1].

وقال السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: ١٠٩]، "أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول مُحَمَّد ﷺ. ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾أي: قسما اجتهدوا فيه وأكدوه.

﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ تدل على صدق مُحَمَّد ﷺ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ﴾ وهذا الكلام الذي صدر منهم، لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به الرسول قطعا، فإن الله أيد رسوله ﷺ، بالآيات البينات،والأدلة الواضحات، التي –عند الالتفات لها– لا تبقي أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به، فطلبهم –بعد ذلك– للآيات من باب التعنت، الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم، فإن الله جرت سنته في عباده، أن المقترحين للآيات على رسلهم، إذا جاءتهم، فلم يؤمنوا بها أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم،وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به، وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك، فليس معلوما، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 258).

ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله، أنه لا يؤمن، ولهذا قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾"[1].

وقال الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[سبأ: 43]، "يخبر تعالى عن حالة المشركين، عندما تتلى عليهم آيات الله البينات، وحججه الظاهرات، وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم، ومِنَّةٍ وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق، والانقياد، والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي، ويكذبون من جاءهم بها ويقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: هذا قصده، حين يأمركم بالإخلاص لله، لتتركوا عوائد آبائكم، الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق، بقول الضالين، ولم يوردوا برهانا، ولا شبهة.فأي شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين، باتباع الحق، فادَّعوا أن إخوانهم، الذين على طريقتهم، لم يزالوا عليه؟ وهذه السفاهة، ورد الحق، بأقوال الضالين، إذا تأملت كل حق رد، فإذا هذا مآله لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين، والدهريين، والفلاسفة، والصابئين، والملحدين في دين الله، المارقين، فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة"[2].

وقال الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 269).

(2) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 682).

كِتَٰبًا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾[الزخرف: ١٩ – ٢٢]، "يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولدا، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له كفوا أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه:

منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات دون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهم بالبنين، ويفضلهم بها؟! فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات دون الصنفين، وأكرههما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[الزخرف: ١٧] من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

ومنها: أن الأنثى ناقصة في وصفها، وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ ﴾[الزخرف: ١٨] أي: يجمل فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه. ﴿ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ ﴾ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام، ﴿ غَيۡرُ مُبِينٍ ﴾ أي: غير مبين لحجته، ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره، فكيف ينسبونهن لله تعالى؟

ومنها: أنهم جعلوا﴿ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾، فتجرأوا على الملائكة، العباد المقربين، ورقوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلى مرتبة المشاركة لله، في

شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثية، فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡۗ﴾ (الزخرف: 20) فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلاً وشرعاً. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.وأما شرعاً فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلا ولهذا قال هنا: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ (الزخرف: 20) أي: يتخرصون تخرصا لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشواء.ثم قال: ﴿ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴾ (الزخرف: 21)يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل مُحَمَّدا نذيرا إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره، أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران، فلا ثَمَّ إلا الباطل.نعم، لهم شبهة من أوهى الشُّبَه، وهي تقليد آبائهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ ﴾ (الزخرف: 22) أي: على دين وملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (الزخرف: 22) أي: فلا نتبع ما جاء به مُحَمَّد ﷺ... وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل، ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ

ءَابَآءَكُمْ﴾[الزخرف: ٢٤] أي: فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فعلم بهذا، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى"[1].

ويندرج تحت المشركين أهل التقليد فلهم شبهاتهم، قال الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠]، "ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله – مما تقدم وصفه – رغبوا عن ذلك وقالوا: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالا وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعا، واتبعه إن كان منصفا"[2].

وقال عند الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، "فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة فقالوا: (وَجَدْنَا آبَاءَنَا) كذلك يفعلون، فسلكنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصاً، في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضللا للجميع: ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[الأنبياء: ٥٤] أي: ضلال بين واضح، وأي ضلال، أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟" أي:

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 763، 764).
(2) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 81).

فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد.﴿ قَالُوٓاْ ﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيههم، وتسفيه آبائهم: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٥٥]، أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا، كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما رددوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم، كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم ردا بين به وجه سفههم، وقلة عقولهم فقال: ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[الأنبياء: ٥٦] فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي؛ أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده، الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن، بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطوراً مدبراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك، جميع ما عبد من دون الله.أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقا متصرفا فيه، لا يملك نفعا، ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟، أما الدليل السمعي: فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك فلهذا قال إبراهيم: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصا أولي العزم منهم وخصوصاً خليل الرحمن"[1].

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 525).

ثانياً: شبهات أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

ردود الشيخ السعدي – رحمه الله – في الرد على شبهات أهل الكتاب كثيرة، خاصة من خلال تفسيره كتاب الله عز وجل، في عرض طريقة القرآن في الرد على شبهات أهل الكتاب وضلالهم وحيلهم الكثيرة، فمن ذلك عند تفسير قول الله تعالى:﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[آل عمران: ٧١]، قال رحمه الله:"فوبخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهماً وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفته حتى يؤثروه"[(1)].

فأهل الكتاب ليس دورهم فقط لبس الحق بالباطل، بل كما قال تعالى: ﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[البقرة: ١٤٠] قال السعدي رحمه الله:"وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾، فالله يقول: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[آل عمران: ٦٧]، وهم يقولون: بل كان يهوديا أو نصرانيا.

فإما أن يكونوا، هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح

(1) تيسير الكريم الرحمن،(ص: 134).

والبيان، حتى إنه – من وضوحه – لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: 140) فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها، وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق، وعدم النطق به، وإظهار الباطل، والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة"[1].

ويقول الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٧]، "لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه، ذكر أقوالهم الشنيعة.فذكر قول النصارى، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل مع أن حواء نظيره، خُلِقَت بلا أم، وآدم أولى منه، خلق بلا أب ولا أم، فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوها في المسيح؟

(1) تيسير الكريم الرحمن،(ص: 69).

فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة. فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. (المائدة: 17)

فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم، ولا قدرة لهم على ذلك دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

ومن الأدلة أن (لِلَّهِ) وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلها معبودا غنيا من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم"[1]

ثالثاً: شبهات الملاحدة[2] والعصرانيين[3]:

برز الشيخ السعدي – رحمه الله – في الرد على الملاحدة والعصرانيين، فكلما لاحت له الفرصة اغتنمها في الرد عليهم، ونقض ما عندهم من شبه وضلال، مبيناً

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 226، 227).

(2) معنى الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد، وقال ابن السكيت: الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس فيه، قال: قد ألحد في الدين ولحد، وقال غيره من أهل اللغة: الإلحاد العدل عن الاستقامة والانحراف عنها، ومنه اللَّحد الذي يحفر جانب القبر خلاف الضريح الذي يحفر في وسطه. فالإلحاد هو عدم الإيمان والاعتقاد بوجود الله، ينظر: تهذيب اللغة،(3242/4)،الحجة لأبي علي الفارسي، (108/4)، الصحاح،(534/2)، مقاييس اللغة، (236/5)، المفردات، (ص: 737)، لسان العرب: (4005/7).

(3) هم فئة يزعمون أنهم يريدون التجديد لتنهض الأمة من كبوتها، ويرون أنه أصبح من الضرورة بمكان أن تعاد كتابة التاريخ الإسلامي والعربي من خلال طرح العديد من الدراسات والأبحاث المتعلقة بالتراث، وعرضها في إطار عقلاني تحت مظلة الانتماء إلى التراث الإسلام. ينظر: جمال سلطان، تجديد الفكر الإسلامي، (ص: 34).

سبب وقوعهم في ذلك وقوعهم في الضلال والزيغ، فيذكر "أن ملاحدة الفلاسفة المعطلين لله ولكتبه ورسله، المكذبين لهم أوقعتهم عقولهم الفاسدة في الهلاك.حيث حكموها في البحث عن علة إيجاد هذا الكون فلم تهتدي لذلك لقصورها وتقصيرها.فزعم كثير منهم: إن هذا العالم قديم، وأنه لم يزل ولا يزال. وبذلك أنكروا وجود الرب العظيم.

ومن باب أولى أنكروا رسله، وكتبه وتضاربت نظرياتهم الفاسدة فضلوا وأضلوا.ولقد صدق عليهم قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[غافر:83]"[1].

ثم إن هؤلاء الفلاسفة الملاحدة في هذه الأوقات أبطلوا بأنفسهم نظرية أسلافهم وأحدثوا لهم نظريات متعددة متضاربة، مبنية على الخرص، والجهل المركب، ولم يزالوا في اضطراب. وهذه حالة كل من ترك الحق واستكبر عنه، وتاه بعقله، قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾[ق:5]، ومن صور رده على العصرانيين إنكاره عليهم فيما زعموا بأن السنن الإلهية مندرجة تحت التفاعل بين المواد والجواهر الكيمائية، والتجارب المكررة، فقال:"وقد دلت البراهين اليقينية والكتب السماوية كلها، بل والمحسوسات والمشاهدات التي لا يمكن إنكارها، على أن لله سننا متنوعة، وأن عناصر العلم العلوي والسفلي منقادة لإرادة الله وحكمته وعلمه المحيط، وأنه يجري المقادير والحوادث على سنن حكيمة متنوعة، قد تعقل أسبابها، وقد لا يعقل أسبابها إلا من ارتضاهم الله لرسالته"[2].

(1) الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، (ص: 48، 49).

(2) وجوب التعاون بين المسلمين، (ص: 246).

ولم يكتف الشيخ بالتصدي لأهل الانحراف والضلال بالرد عليهم ردوداً متفرقة، متوزعة في كتب له لم يكن الغرض منها الرد عليهم أصالة، بل شرع في إفراد تأليف خاص للرد على شبهاتهم وضلالهم فمن ذلك:

- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين.
- انتصار الحق.
- تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله.

رابعاً: شبهات المتكلمين والمناطقة والفلاسفة:

يبين الشيخ السعدي – رحمه الله– أن علوم الفلسفة والمنطق اليوناني التي يقدم عليها هؤلاء كانت مما رد به كثير من آيات القرآن الكريم، قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[غافر: ٨٣]، "ثم ذكر جرمهم الكبير، فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدي من الضلال، والحق من الباطل ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ المناقض لدين الرسل.ومن المعلوم أن فرحهم به، يدل على شدة رضاهم به، وتمسكهم، ومعاداة الحق، الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم، التي نوقض بها، ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رُدَّت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة، أدلة لفظية، لا تفيد شيئًا من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله، والمعارضة لها، والمناقضة، فالله المستعان"[(1)].

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 744).

وقال الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران: ٥٩]، "وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[يونس: ٣٢]، وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه"[1].

وقال الشيخ السعدي – رحمه الله – داحضاً شبه الفلاسفة الدهرية عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[الفرقان: ٤ – ٦]، "وهذا القول منهم فيه عدة عظائم:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 133).

ومنها: أن الرسول قد عُلمت حالته وهم أشد الناس علماً بها، أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له وقد زعموا ذلك.

فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾أي: أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض، من الغيب والشهادة والجهر والسر كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء: ١٩٢ – ١٩٤]، ووجه إقامة الحجة عليهم أن الذي أنزله، هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويتقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله وما هو من عنده ويستحل دماء من خالفه وأموالهم، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء ومع ذلك فهو يؤيده وينصره على أعدائه، ويمكنه من رقابهم وبلادهم فلا يمكن أحدا أن ينكر هذا القرآن، إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم سوى الفلاسفة الدهرية"[1].

المبحث الثاني

منهج ابن السعدي في الرد على الشبهات

المطلب الأول: معالم منهج ابن سعدي في الرد على الشبهات

أولاً: تقريره أن رد شبهات المبطلين علم من علوم القرآن:

قال الشيخ السعدي رحمه الله: "ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 578).

البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقا للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها، وتكريمهم وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات على الصلاح، والمحرمات مشتملات على المفاسد"[1].

ويصف الشيخ السعدي – رحمه الله – منهج القرآن في رد شبهات المبطلين، فيقول: "وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباء منثورا.

ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص: 37، 38).

بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فلله الحمد والشكر"[1].

ثانياً: الاعتماد على نصوص الوحي في الرد على الشبهات:

المتأمل في منهج أهل السنة والجماعة يجد اتصافه بالاعتماد على نصوص الوحي في شتى مناحي الحياة؛ لأن به صلاح الزمان والمكان والأشخاص، والهداية من الزيغ والضلال، وبتركه الغواية والهلاك، والحيرة والفساد، يقول الشيخ السعدي رحمه الله: "لقد وضح الله عز وجل ورسوله ﷺ في الوحيين؛ المسائل والدلائل اليقينية، والبراهين القطعية، فمن تمسك بهما، واهتدى بهديهما سعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنهما، أو عارضهما؛ ضل عن الهدى وشقي، ونال الصفقة الخاسرة"[2].

وطريقة أهل الشبهات هي البعد عن نصوص الوحي، والاعتماد على غيره تقديماً وتقديساً، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – حاكيا حالهم: "ولهذا تجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم وما تأولوه من اللغة؛ ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين؛ فلا يعتمدون لا على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم؛ وإنما يعتمدون على العقل واللغة وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث؛ وآثار السلف وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعتها رءوسهم وهذه طريقة الملاحدة أيضاً؛ إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة وأما كتب القرآن والحديث والآثار؛ فلا يلتفتون إليها. هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص: 38).

(2) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، (ص: 3).

بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه... وإذا تدبرت حججهم وجدت دعاوى لا يقوم عليها دليل"[1].

والشيخ السعدي – رحمه الله – يبين أن نصوص الوحي مبيِّنة لجميع ما يحتاجه العباد من أحكام ومسائل، يقول رحمه الله:"فإنه لا أصدق من الله ورسوله قيلاً وحديثاً، ولا أعظم وأوضح من بيان الله ورسوله، وقد تكفل الكتاب والسنة – على وجه التفصيل – ببيان جميع ما يحتاجه العباد من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والحقوق، والمعاملات تفصيلاً وتوضيحاً لو اجتمعت العقلاء كلهم من أولهم إلى آخرهم لم يقدروا أن يأتوا بشيء يقاربه في الحسن، والتوضيح، والإحكام"[2].

ويشير الشيخ السعدي – رحمه الله – إلى الطريقة التي تمكن المسلم من مواجهة الشبهات، والطمأنينة حال ورودها، وعدم التأثر بها، الحرص على الازدياد من نصوص الوحي والتدبر فيه والمعرفة به، يقول رحمه الله:"فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه. وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين. فقد وصف الله الراسخين في العلم. الذين حصل لهم العلم التام القوي، الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام"[3].

وبذلك يعرف الإنسان أن الوحي هو المصدر الدافع للشبهات، الموصل للحق والاطمئنان، وما سواه باطل وحيرة وضلال، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾[الأحزاب: ٤]، قال الشيخ السعدي رحمه الله:"هذه الآية جمعت كل علم صحيح! وذلك أن العلم: إما مسائل نافعة، وإما دلائل مصيبة؛ فأنفع المسائل المشتملة على الحق – وهو الصدق والعدل والقسط والاستقامة ظاهراً وباطناً –

(1) مجموع الفتاوى، (119/7).

(2) الرياض الناضرة، (ص: 157).

(3) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، (ص: 73).

أهدى الدلائل، وأرشدها ما هدى السبيل الموصل إلى المطالب العالية، والمراتب السامية، فالكتاب والسنة كفيلان بهذين الأمرين على أكمل الوجوه، وأتمها وأبينها، وما سوى ذلك فهو باطل وضلال؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال، وما بعد الهداية إلى السبيل المستقيم إلا الهداية إلى سبيل الجحيم،﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان: ٣٣]"[1].

ثالثاً:استحضار أقول السلف عند الرد والاستشهاد بها:

انتهج الشيخ السعدي – رحمه الله – في ردوده على أهل الشبهات والبدع والأهواء استشهاده بأقوال السلف الذين يعرف عنهم اتباع الكتاب والسنة، فمن ذلك استشهاده بقول الإمام مالك – إمام دار الهجرة – في مسألة الاستواء فقال: "قال الإمام مالك لمن سأله عن كيفية الاستواء على العرش، فقال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)[2].

قال الشيخ السعدي – رحمه الله – "فمن سأل عن كيفية علم الله، أو كيفية خلقه وتدبيره، قيل له: فكما أن ذات الله تعالى لا تشبهها الذوات، فصفاته لا تشبهها الصفات، فالخلق يعرفون الله، ويعرفون ما تعرف لهم به، من صفاته وأفعاله. وأما كيفية ذلك فلا يعلم تأويله إلا الله"[3].

قال الشيخ – رحمه الله – واضعاً قاعدة ذهبية في الحديث عن الصفات: "فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيتها أن يقال كما قال الإمام مالك:(تلك الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة)، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا،

(1) المواهب الربانية من الآيات القرآنية،(ص: 50).
(2) الأسماء والصفات، لأبي بكر البيهقي، (ص: 8)، تيسير الكريم الرحمن: (ص: 122).
(3) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار، (ص: 184).

فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكلون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون"[1].

ويشير الشيخ السعدي – رحمه الله – إلى إجماع السلف في المسائل التي يرد بها على أهل البدع والشبهات، فمن ذلك: "وأما تقسيم بعض أهل الكلام الباطل: أن صفات الأفعال لا تقوم بذات الله؛ بل الفعل عندهم عين المفعول؛ فهذا قول باطل بالكتاب والسنة والإجماع من السلف"[2].

فالرجوع إلى أقوال السلف واستحضارها والاستشهاد بها مما يزيد الرد قوةً ووضوحاً وإقناعاً عند المنصفين، وذلك لمعرفتهم بالحق وتميزهم له عن الباطل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – مبيناً أهمية الرجوع لأقوال السلف واستحضارها ومعرفة موقفهم:" كانوا أعرف الناس بالحق وأدلته، وبطلان ما يعارضه، وإنما يظن بهم التقصير في هذا من كان جاهلاً بحقيقة الحق، وبما جاء الرسول ﷺ من العلم والإيمان"[3].

رابعاً: بيان قوة الحق وحسن تقريره:

إن حسن عرض الحق يغني عن استقصاء الإجابة على الباطل، فالأصل بيان الحق دون تتبع آحاد الشبهات، يقول السعدي رحمه الله:"إذا تبين الحق بأدلته اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنها لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح، فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع"[4].

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص: 122).
(2) الحق الواضح البين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين، (ص: 101).
(3) درء تعارض العقل والنقل، (176/7).
(4) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 72).

ويرد الشيخ السعدي – رحمه الله – على المشركين الذي تعوزهم البراهين والحجج الدالة على قوة الحق، ويقرر أنهم مبطلون؛ لأنهم لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام، وجعلها ذات قدرة وتأثير، بل هي مجرد دعوى لا برهان عليها ولا دليل، فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[النمل: ٦٤]، "أي: من هو الذي يبدأ الخلق وينشئ المخلوقات ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض بالمطر والنبات؟﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يفعل ذلك ويقدر عليه؟ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على ما قلتم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وإلا فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذلك فذلك مجرد دعوى صدِّقوها بالبرهان، وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات"[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"فإن القول الباطل الكذب هو من باب ما لا ينقض الوضوء، ليس له ضابط، وإنما المطلوب معرفة الحق والعمل به، وإذا وقع الباطل عرف أنه باطل ودفع"[2].

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 608).
(2) درء تعارض العقل والنقل، (51/8).

خامساً: اتباع منهجية واضحة في بيان المفاهيم وعرض الشبهات والرد عليها:

كان الشيخ السعدي رحمه الله ينتهج في رده على الشبهات بيان حقيقة أصحاب الشبهة، ثم يعرض الشبهة ومن ثم يبدأ في الرد عليها وتفنيدها ونقضها، بالنصوص الشرعية، والحجج العقلية، فمن ذلك ما يأتي:

أ. **بيان حقيقة الجبرية:** ألَّف الشيخ السعدي مؤلفات مهمة في الرد على أصحاب الشبهات، وعرض في تضاعيف تلك الكتب ما يتعلق بهم، ويمكن أن نضرب لذلك مثالاً عند حديثه عن الجبرية، فقد بين حقيقة ومفهوم الجبرية في اصطلاح أهل العلم فقال رحمه الله: "الجبرية القائلين: إن العبد مجبور مقهور على جميع أقواله وأفعاله؛ وإنه لا قدرة له على شيء منها، بل هي عندهم واقعة بغير اختياره"[(1)].

وبعد بيان مفهوم وحقيقة الجبرية، وشبهتهم قام بالرد عليهم رداً مفصلاً فيقول: "وهذا القول باطل بالكتاب والسنة، وباطل بالعقل والحس؛ وجميع المسلمين من جميع الطوائف أهل السنة وغيرهم ينكرون هذا المذهب ويتبرؤون منه..."[(2)].

ب. **عرضه لمذهب القدرية النفاة:** قال السعدي رحمه الله: "وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون: إن أفعال العباد، وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره.فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات وأوصافها، ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشأها منهم، بل هم الذين أرادوها وشاءوها، وفعلوها استقلالاً بدون مشيئة الله، ويزعمون: أنهم بهذا القول ينزهون

(1) الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، (ص: 9).

(2) المصدر السابق نفسه،(ص: 10).

الله عن الظلم، لأنه لو قدر المعاصي عليهم، ثم عذبهم عليها، لكان ظالما لهم.."[1].

فبعد عرضه لشبهتهم يبدأ بالرد عليهم فيقول رحمه الله:"لكنهم بهذا القول الباطل ردوا نصوصاً كثيرة من الكتاب والسنة تثبت وتصرح أن جميع أعمال العباد من خير وشر، وطاعة ومعصية بقضاء الله وقدره، كما أجمع المسلمون: أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ..."[2].

ج. **بيان حقيقة شبه المشركين من كفار قريش:**قال الشيخ السعدي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف: ٥٧، ٥٨]، "يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾أي: نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد. ﴿إِذَا قَوۡمُكَ﴾ المكذبون لك (مِنْهُ) أي: من أجل هذا المثل المضروب، (يَصِدُّونَ) أي: يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم، وأفلجوا.﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ يعني: عيسى، حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم، ونزل أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[الأنبياء: ٩٨]، ووجه حجتهم الظالمة، أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا مُحَمَّد أن عيسى من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة لم

(1) المصدر السابق نفسه، (ص: 17).

(2) المصدر السابق نفسه، (ص: 18).

تتناقض، ولمَ قلت: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾وهذا اللفظ بزعمهم، يعم الأصنام، وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها، هذا أنهى ما يقررون به هذه الشبهة الذي فرحوا بها واستبشروا، وجعلوا يصدون ويتباشرون.وهي -ولله الحمد- من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عبادة الأصنام، لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق، فأي شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟وليس تفضيل عيسى عليه السلام، وكونه مقربا عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[الزخرف: ٥٩]بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.

وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن قوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾أن (ما) اسم لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.

الثاني: أن الخطاب للمشركين، الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصناما وأوثانا ولا يعبدون المسيح.

الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠١] فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون في هذه الآية"[1].

سادساً: الاستدلال بالحجج العقلية:

سار الشيخ رحمه الله في رده على أهل الأهواء والشبهات باستخدام الأدلة العقلية، والبراهين النظرية، بل أفرد كتاب في ذلك سماه: (البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله)، لما للعقل من أهمية في الاسترشاد والدليل، فالعقل: "هو الدليل للعبد، وهو المرشد له في جميع المطالب، فما دام العقل عقلاً حقيقياً، فلا يترتب عليه إلا كل خير ونفع عاجل وآجل، وإنما يخشى الشر والضرر من أحد أمرين: إما قصوره وتقصيره، وإما تعديه ومجاوزته الحد الذي حد له؛ إذا كان صاحبه في الحالين يعتقد استقامته وكماله، فحينئذ عليه أن يحترز من كل حالة منهما بما يليق بها ويناسبها"[2].

ويشير الشيخ رحمه الله إلى أهمية ارتباط العقل بالشرع واعتماده عليه، فقال: "العقل مؤيد للشرع، ومعترف بكمال الشرع وهدايته، وأنه مضطر إلى الشرع، ومكتمل بإرشاداته، ومهتد بأنواره، فالعقول لا تستنير، ولا تستقيم حق الاستقامة إلا بالدين والشرع"[3].

ويحث الشيخ على الاهتمام بالأدلة العقلية المبثوثة في الكتاب والسنة، لما حوته من وضوح وسلامة وبراهين عظيمة، بل وأعظم من أدلة المتكلمين، فيقول: "فإن ما في الكتاب والسنة من البراهين العقلية، والأدلة الحسية، وتنبيه العقول على جميع المطالب العالية، ما لو جمعت جميع ما عند النظار والمتكلمين من البراهين لكان جزءاً

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 768).
(2) الفتاوى السعدية، (ص: 53).
(3) الرياض الناضرة، (ص: 230).

يسيراً بالنسبة لما في الكتاب والسنة، مع وضوح دلالته، وسلامته من الغلط والنقص، والاختلال بوجه من الوجوه، وهي براهين يفهمها العالم والجاهل، والذكي والبليد"[1].

وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في أن أكمل الأدلة العقلية هي الأدلة العقلية الواردة في الكتاب والسنة، فقال: "فإن الشرع يتضمن بيان الدلائل العقلية التي يحتاج إليها وينتفع لها في هذا الباب"[2].

وكان من طريقة الشيخ السعدي – رحمه الله – في إيراد الأدلة العقلية في الرد على شبهات أهل الأهواء ما يأتي:

أ.ضرب الأمثال لزوال اللبس وحصول المقصود: بين الشيخ رحمه الله أن طريقة ضرب الأمثال هي طريقة الكتاب والسنة، لزيادة التوضيح، وإزالة اللبس والشك، فقال: "الأمثلة تزيد البصير بصيرة، وتزيل عن الشاك الطالب للحق الريب والحيرة"، ثم بدأ بذكر أمثلة متعلقة بمسألة القضاء والقدر"[3].

ويثني الشيخ السعدي على طريقة ضرب الأمثال بقوله: "فهذه الطريقة من طرق التعليم العالي، ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه للأمور المهمة، وكذلك النبي ﷺ قد ضرب الأمثال ليحصل البيان ويزول الإشكال"[4]

ب.بيان لازم قول المخالفين: يبين الشيخ السعدي رحمه الله في رده على أهل الأهواء بذكر اللوازم الفاسدة والباطلة على ما قالوا به واستدلوا فيه، مما يترتب عليها محاداة لله ورسوله ﷺ، وتبيينا لشناعة قولهم وفساده، فمن ذلك رده على الملاحدة في بيان لوازم أصلهم الفاسد في محو جميع العلوم، ومحو ما جاءت به الرسل، وأنزلت به

(1) الرياض الناضرة، (ص: 157، 158).

(2) درء تعارض العقل والنقل، (351/7).

(3) الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، (ص: 81).

(4) توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، (ص: 33).

الكتب ، واستبدال ذلك بوساوس النفس، ووحي الشياطين، فقال: "هذا الأصل الخبيث يعود إلى تسلسل محو ما يقع في القلوب من كل علم صحيح وفاسد، ومن كل معرفة حاصلة في القلب، فهو أعظم معول لهدم العلوم كلها؛ لأن ذلك يوجب ألا يثبت في القلوب شيء من العلوم الصحيحة، بل لا تزال الشكوك والمكابرات تنفي ما يقع في القلوب حتى تنحل العلوم وتنحل الأخلاق، ويتدرج بذلك إلى مذهب الإباحية والانطلاق في الفوضى وأغراض النفوس الخبيثة الضارة، ولا يبقى دون ذلك مانع علمي ولا مانع خلقي. وهذا أعظم معول للشيوعية المفسدة للدين والدنيا، وبهذه الطريقة فشا الالحاد"[1].

وفي رده على الجهمية في معنى الإيمان حيث يدعون أن تفسير الإيمان عندهم: معرفة فقط، وإخراجهم قول اللسان وعمل الجوارح عن مسمى الإيمان، فقال رحمه الله ردا عليهم: "فمن لوازم هذا القول الفاسد، المعلوم فساده بالضرورة: أن إبليس وفرعون وقارون، وقوم عاد وثمود، وقوم نوح ونحوهم، وإيمان أبي جهل وأبي لهب ونحوهما من أئمة الكفر وساء الكفرة الذين يعرفون أن الله خلقهم ليسوا كفارا، وهذا اللازم لهذا القول الباطل؛ معلوم عند كل أحد أنه باطل منكر"[2].

سابعاً: العدل والانصاف وعفة اللسان:

من معالم منهج الشيخ السعدي في الرد على شبهات المخالفين، عفة اللسان والعدل والإنصاف مع المخالف، عملاً بنهج الشريعة الإسلامية التي تأمر بالعدل والإحسان، والبعد عن الحيف والظلم والجور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ

(1) الأدلة القواطع: (11/6).
(2) توضيح الكافية الشافية، (ص: 16، 17).

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: 90]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة: 8]، وقال عبد الله بن رواحة ﷺ، لما ذهب إلى اليهود عندما بعثه النَّبيُّ ﷺ ليخرص النَّخل هناك، فقال لهم: "يا معشر اليهود أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إيَّاكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسقٍ من تمرٍ، فإن شئتم فلكم وإن أبيتم فلي" فقالوا: بهذا قامت السَّماوات والأرض، قد أخذنا فاخرجوا عنَّا:"[1].

يقول ابن القيم – رحمه الله– عن الإنصاف: "والله تعالى يحبُّ الإنصاف بل هو أفضل حلية تحلَّى بها الرَّجل، خصوصاً من نصَّب نفسه حكماً بين الأقوال والمذاهب، وقد قال الله تعالى لرسوله:﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[الشورى:15]، فورثةُ الرَّسول ﷺ، منصبهم العدل بين الطَّوائف، وألَّا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه وطائفته ومتبوعه، بل يكون الحقُّ مطلوبه، يسير بسيره، وينزل بنزوله، يدين بدين العدل والإنصاف، ويحكم الحجَّة، وما كان عليه رسول الله ﷺوأصحابه، فهو العلم الذي قد شمَّر إليه، ومطلوبه الذي يحوم بطلبه عليه، ولا يثني عنانه عنه عذلُ عاذلٍ، ولا تأخذه فيه لومة لائم، ولا يعيده عنه قولُ قائلٍ"[2].

(1) المسند، للإمام أحمد بن حنبل، مسند جابر بن عبد الله، (210/23)، رقم: (14953).
(2) إعلام الموقعين، (95،94/3).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأمور النَّاس إنَّما تستقيم في الدُّنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر ممَّا تستقيم مع الظُّلم في الحقوق وإن لم يشترك في إثمٍ، ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدَّولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظَّالمة وإن كانت مسلمة، ويُقال: الدُّنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظُّلم والإسلام"[1].

وقد قرر الشيخ السعدي هذا المعنى من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ١٥٢]، فقال رحمه الله:"(وَإِذَا قُلْتُمْ) قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال. (فَاعْدِلُوا) في قولكم، بمراعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإن الميل على من تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المحرم.

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبُعدها منه.وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين، في لحظه ولفظه"[2].

فعلى من تولى زمام الرد على أهل الأهواء استحضار ذلك، فهو واجب في كل حال على كل أحد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"ومعلوم أنا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة مثل الملوك المختلفين على الملك والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل لا بجهل وظلم فإن العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال والظلم محرم مطلقا لا يباح قط بحال، قال

(1) الاستقامة، (247/2).
(2) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 280).

تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: 8].

وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار وهو بغض مأمور به فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه فكيف في بغض مسلم بتأويل وشبهة أو بهوى نفس فهو أحق ألا يظلم بل يعدل عليه، وأصحاب رسول الله ﷺ أحق من عدل عليهم في القول والعمل والعدل مما اتفق أهل الأرض على مدحه ومحبته والثناء على أهله ومحبتهم والظلم مما اتفقوا على بغضه وذمه وتقبيحه وذم أهله وبغضهم"[1].

ويظهر من إنصاف الشيخ وعدله ما ذكره عن الإمام – ابن الجوزي رحمه الله – فيما وقع منه في كتابه صيد الخاطر حول مسألة الصفات حينما سئل عنه، فقال السعدي رحمه الله: "الجواب وبالله التوفيق، ابن الجوزي – رحمه الله وغفر له – إمام في الوعظ والتفسير والتاريخ، وكذلك هو أحد الأصحاب المصنفين في فقه الحنابلة، ولكنه – رحمه الله – خلط تخليطاً عظيماً في باب الصفات وتبع في ذلك الجهمية والمعتزلة، فسلك سبيلهم في تحريف كثير منها وخالف السلف في حملها على ظاهرها...وهو معدود من الأكابر الأفاضل، ولكن كل أحد مأخوذ من قوله ومتروك سوى النبي ﷺ"[2].

وبين الشيخ السعدي – رحمه الله – أن العائق في تطبيق العدل والانصاف مع المخالفين اتباع الهوى، فقال:"والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدل على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له

(1) منهاج السنة النبوية، (126/5، 127).

(2) الفتاوي السعدية، (ص: 75) مختصرا.

غاية الاهتمام، وأن يجعله نُصْب عينيه،ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾[النساء: ١٣٥] أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلا والباطل حقا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم"[(1)].

ويبين الشيخ أن القدح فيما عند الخصوم من حق باطل ظلم، فقال تعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[العنكبوت: 46]: "ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب، أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً. وأيضاً، فإن بناء مناظرة أهل الكتاب، على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب، وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومُحَمَّد ﷺ قد

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 208، 209).

بينتها ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام"[1].

ثامناً: المجادلة والمناظرة:

من معالم منهج الشيخ عند الرحمن السعدي استعمال المجادلة بالتي هي أحسن والحجاج مع المخالفين وأصحاب الشبه، وقد بين – رحمه الله – مفهوم المجادلة كما بين الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المناظر.

فمن بيانه – رحمه الله – مفهوم المناظرة تعريفها بقوله: "المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك"[2].

وبين الشيخ السعدي – رحمه الله – القصد من المناظرة أنه إظهار الحق وبيانه، وإبراز الباطل وعواره، فقال رحمه الله:"ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه. فإنه حينئذ يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون"[3].

وقال أيضاً: "ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق

(1) تيسير الكريم الرحمن (ص: 632).
(2) نفس المصدر السابق،(ص: 69).
(3) نفس المصدر السابق، (ص: 270).

ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وألا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع"[1].

وأشار الشيخ السعدي إلى آداب ينبغي للمناظر التحلي بها، منها ما يأتي:

1. **المجادلة بالتي هي أحسن:**
2. **نزاهة القول،** قال السعدي رحمه الله:"أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم"[2].
3. **تحسين الحق، وتهجين الباطل بأقرب طريق،** قال الشيخ السعدي رحمه الله: "دعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك"[3].
4. **الوضوح والبيان،** قال الشيخ السعدي رحمه الله: "بالعبارات الواضحة والبراهين البينة؛التي تحق الحق وتبطل الباطل، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة"[4].
5. **الفصاحة والبلاغة،**فينبغي للمناظر أن يكون له:"لسان فصيح يتمكن من التعبير به عما يريده ويقصده بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا

(1) نفس المصدر السابق، (ص: 632).
(2) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 58).
(3) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 632).
(4) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، (353/2).

المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه"[1].

6. **الصبر والحلم**،على المناظر التحلي بالصبر والحلم، لأن المقام يتطلب ذلك، يقول الشيخ رحمه الله: "الداعي إلى الله المرشد للخلق خصوصا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى"[2].
7. **الاتفاق على أرضية مشتركة بين المتناظرين**: قال الشيخ السعدي – رحمه الله مبيناً – معنى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٦]، "أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل...

فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني، دون الكتاب الفلاني وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

(1) تيسير الكريم الرحمن (ص: 504).
(2) نفس المصدر والصفحة.

وأيضاً فإن كل طريق تثبت به نبوة أي نبي كان، فإن مثلها وأعظم منها، دالة على نبوة مُحَمَّد ﷺ، وكل شبهة يقدح بها في نبوة مُحَمَّد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره، فثبوت بطلانها في حقه ﷺأظهر وأظهر"[1].

تاسعاً: التحري والاستشارة:

من معالم منهج الشيخ السعدي – رحمه الله – في الرد على الشبهات بيانه أهمية تحري المسائل، واستشارة أهل العلم والفضل، ليكون الرد مبنياً على نظرٍ فاحصٍ، وعلمٍ دقيق، وإحاطة واسعة بالشبهات، وما يتعلق بها أو يدور في فلكها، قال رحمه الله: "واعلم أن المشاورة تختلف باختلاف مواضيعه، فأمور السياسة يشاور فيها أهل الحل والعقد، والرجال المتميزون في عقولهم وآرائهم، وكمال نصحهم، وأمور العلم والدين يشاور فيها أهل العلم والدين، الجامعون بين العلم والحلم، والعقل والدين..."[2].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، "وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال"[3].

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 632).
(2) الرياض الناضرة، (ص: 22، 118).
(3) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 441).

وبين الشيخ السعدي أهمية السؤال لإزالة شبه المكذبين بمحمد ﷺ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[الأنبياء: ٧]، في كلام طويل لكنه في غاية النفاسة والتعلق ببحثنا عن منهج الشيخ السعدي في الرد على الشبهات، ولذلك سنسوقه هنا بتمامه، قال رحمه الله: "هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلا كان ملكا، لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلا كان خالدا؟ فإذا لم يكن كذلك، دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بإثبات الرسل قبله – ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته – بأن الرسل قبل مُحَمَّد ﷺ، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة، والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال مُحَمَّد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقروا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأسا، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكا مخلدا، لا يأكل الطعام، فقد أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا

يَلۡبِسُونَ ﴾[الأنعام: ٨ – ٩]، وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾[الإسراء: ٩٥] فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾، من الكتب السالفة كأهل التوراة والإنجيل يخبرونكم بما عندهم من العلم وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم. وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه. وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم "[1].

عاشراً: الحث على تجديد الدين عند ورود الشبهات:

قال الشيخ السعدى رحمه الله تعالى عند تفسير قوله عزو وجل: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٦٤]، "وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فأشهِدوهم أنكم مسلمون، ولعل الفائدة في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضا فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويتهم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴾[الإسراء: ١٠٧] ... وأيضاً فإن في ورود الشبهات

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 519).

على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه، إخباراً بيقينه وشكراً لنعمة ربه"[1].

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[آل عمران: ١٨ – ٢٠]، "ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام عليه أن يقول لهم: قد ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾أي: أنا ومن اتبعني قد أقررنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزمنا ببطلانه، ففي هذا تأييس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيده بأهل العلم من عباده ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا مُحَمَّد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلته الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانتفى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة"[2].

(1) نفس المصدر السابق، (ص: 133، 134).

(2) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 126).

وقال الشيخ السعدي – رحمه الله – منبهاً ناصحاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: 19]، "فوازنْ بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم وفسدت آراؤهم وأخلاقهم وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.بل خالفوا بشهادة فطرهم وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى مع أنه لا يقوم على ما قالوه أدنى شبهة فضلاً عن الحجج واختر لنفسك أي الشهادتين إن كنت تعقل ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه الذي أمرنا الله بالاقتداء به فقال: (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أي منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير"[1].

حادي عشر: بيان حال الخصم وأفعاله الخبيثة من أهم طرق محاجته:

قال عند الشيخ السعدي تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥ –١٥٨]، "وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحاجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق أن

(1) نفس المصدر السابق، (ص: 252).

يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يُجعل هذا معها"[1].

المطلب الثاني: نماذج من ردود الشيخ السعدي على الشبهات

للشيخ السعدي – رحمه الله – جهود مباركة في الرد على أهل الكتاب وسائر الطوائف ضمنها كتبه، وبين فيها حقيقة تلك الشبهات ومقتضاها، وتهافتها، وهنا سنضرب أمثلة ونماذج تطبيقية، كالآتي:

النموذج الأول: الرد على أهل الكتاب أن ينزل عليهم آية، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[النساء: ١٥٣].

قال الشيخ رحمه الله: "هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم. وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مدبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده كما قال تعالى عن الرسول ﷺ، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على ﷺ، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٣].

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقا، مجرد دعوى لا دليل عليها ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقا فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 213).

بل نزول هذا القرآن مفرقا بحسب الأحوال مما يدل على عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾[الفرقان: ٣٢ – ٣٣].

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به. من سؤالهم له رؤية الله عيانا، واتخاذهم العجل إلهًا يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رءوسهم وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجدا مستغفرين، فخالفوا القول والفعل. ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة.وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم فنبذوه وراء ظهورهم"[1].

وبين الشيخ السعدي تهافت شبه منكري البعث، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[الجاثية: ٢٤ – ٢٦]، "(وَقَالُوا) أي: منكرو البعث (مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 213).

يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ) أي: إن هي إلا عادات وجري على رسوم الليل والنهار يموت أناس ويحيا أناس وما مات فليس براجع إلى الله ولا مجازى بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم (إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ) فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان. إن هي إلا ظنون واستبعادات خالية عن الحقيقة ولهذا قال تعالى: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، وهذا جراءة منهم على الله، حيث اقترحوا هذا الاقتراح وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم، وأنهم لو جاءوهم بكل آية لم يؤمنوا إلا إن تبعتهم الرسل على ما قالوا، وهم كذبة فيما قالوا وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل لا بيان الحق، قال تعالى: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالاً وتهيأوا له"[1].

النموذج الثاني:- رده رحمه الله - على احتجاج المشركين في شركهم بالقدر يبين الشيخ بالحجج الواضحة تهافت قولهم، وفساده، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[الأنعام: ١٤٨ – ١٤٩]، "هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله، بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم.

(1) نفس المصدر السابق، (ص: 777، 778).

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[النحل: 35].

فأخبر تعالى أن هذه الحجة، لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل، ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهكلهم الله، وأذاقهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة، من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة، لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة، لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص، الذي لا يغني من الحق شيئا، فإنها باطلة، ولهذا قال: (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) فلو كان لهم علم –وهم خصوم ألداء– لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم. (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ) ومَنْ بنى حججه على الخرص والظن، فهو مبطل خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

ومنها: أن الحجة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة القاطعة باطل، لأن نقيض الحق، لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة، وإرادة، يتمكن بها من فعل ما كلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن من تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر، ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من

كابر، وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلا في مشيئة الله، ومندرجا تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجبا كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه. ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم؟

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودا، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ"[1].

النموذج الثالث: رده – رحمه الله – على اقتراح المشركين نزول القرآن على غير مُحَمَّد ﷺ، يقول رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾[الزخرف: ٣١ – ٣٢].

" ﴿ وَقَالُواْ ﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ﴾ أي: معظم عندهم، مبجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله ردا لاقتراحهم: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ ﴾ أي: أهم الخزان لرحمة الله، وبيدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟

﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ أي: في الحياة الدنيا، والحال أن رَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ من الدنيا.

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 278، 279).

فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لا غ، وأن التدبير للأمور كلها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم، من جهة غلطهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً وأغزرهم علماً، وأجلهم رأياً وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمةً، وأشدهم شفقةً، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟!، ومن جرمه ومنتهى حمقه أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيما؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون"[1]

(1) تيسير الكريم الرحمن، (ص: 764).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد هذا الجولة في مؤلفات الشيخ السعدي في الرد على الشبهات تطيب لي تسجيل النتائج والتوصيات الآتية:

أولاً: النتائج:

– موافقة الشيخ عبدالرحمن السعدي منهج أهل السنة في الرد على أهل الشبهات وأهل الأهواء.

– تميز المنهج الدعوي للشيخ السعدي في الرد على أهل الشبهات والأهواء.

– تنوع أساليب الشيخ عبدالرحمن السعدي في الرد على أهل الشبهات والبدع.

– يظهر من ردود الشيخ عبدالرحمن السعدي التزام الأدب والانصاف في الرد على المخالفين .

– براعة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في عرض الشبهات وحسن الرد عليها.

التوصيات:

يوصي الباحث في ختام هذا بالبحث بالآتي:

– القيام بدراسة علمية حول منهج الشيخ السعدي في الرد على المشركين من خلال تفسيره.

– دراسة محاسن الإسلام في فكر الشيخ السعدي.